فى الخبـــأ . . .

للأســـتاذ محمد محمود دوارة

عشنا اترى ما لم يكن يخطر لنا على بال . واضطرتنا حوادث الأيام إلى أن نأتى أعمالاً لو أنا أتيناها قبل اليوم لنسب إلينا الجنون المطبق ! ...

انقلبت جميع الأوضاع رأساً على عقب .

كان الظلام مبعث الرهبة والخوف ، فأمسى هو الملجأ منهما

كان المنزل هو المكان الذى يتوفر فيه أمن المرء وطمأنينته فأصبح الملاذ كل الملاذ فى البقاء بالمنزل .

كانت الشجاعة فى الثبات أمام الأخطار والمكاره ومجابهتها وجهاً لوجه فإذا هى فى الفرار والهرب .

كان النهار مساعاً والليل لباساً فإذا النهار غير معاش والليل هلاك .

كان القمر فتنة الكون فى لياليه الباهرة ، وكان نجوى الشاعر والعاشق والفنان ، فإذا هو علامة من علامات الشر ، ونذيرٌ من نذر الضرر والخراب .

فسبحان الذى يغير ولا يتغير ...

* * *

بعد منتصف الليل والكون غارق فى بحار الكرى تدوى فى الفضاء جلبة أصوات منكرة متقطعة متكررة لا عهد لنا بها من قبل ، فكأنه قد نفخ فى الصور ، وجاء يوم البعث والنشور .

يثب المستدفئ من فراشه الوثير وكان لو خيّر بين تركه أو خسارة نصف ماله لضحّى بالمال غير متردد فى الاختيار .

وتعلل الشوارع فى تلك الساعة التى اعتادت فيها الفراغ إلا من متسكع لا مأوى له ، أو حارس تعلم بالتجربة كيف ينام وهو واقف ، أو مصروف جعل من ليله نهاراً .

رجال ونساء وصبية وأطفال كلهم متزغ مضطرب . كلهم صامت كأن لم يخلق له لسان ولا شفتان ، وكلهم سريع الخطى لا فرق بين هرم وشاب ، ولا بين عجوز وفتاة فى عنفوان الصبا والشباب .

قف فى تلك الساعة وتأمل فى الناس ...

هذه جارتى الحسناء التى اعتادت أن تقف أمام المرآة نصف النهار لتخرج إلى الناس فتنة وسحراً لا يقاومان ، ها هى قد خرجت تهرول بوجهها الذى خلقه الله . لم تمكنها المفاجأة ولم يمكنها الخوف من الكذب على عباد الله .

وهذا جارى الذى لم أكن أراه ولم يكن يراه الناس إلا منتفخ الأوداج مصعر الخد متبختراً يمشى الهوينى كأنه الهودج أو الملك الروى ، ها هو الآخر يهرول فى مشيته ضارباً بأصول العظمة والكبر ومشية الحكام عرض الحائط

وهذا الرجل الذى قطع حبل السكون بضراعته إلى الله تعالى وبدعوة رسله وأنبيائه وأوليائه ، هل رأيته فى الصباح وسمعته وهو يسب الأديان جميعاً لسبب من أتفه الأسباب ؟

ما أروع الفرق بين الليل والنهار فى هذه الأيام !

وما أقرب المسافة بين إيمان الإنسان وكفره ، وبين أمنه وخوفه وبين هداه وضلاله !

وفى الخبأ فى كل ليلة من ليالى الغارات تستطيع أن تشهد وأن تسمع ما لا عين شهدت ، ولا أذن سمعت ، قبل هذه الليالى السوداء !

* * *

دخل الخبأ متأخراً عن رواده بقليل رجل يحمل فى إحدى يديه مصباحاً كهربائياً (بطارية) يستعين به بين الفينة والفينة على تعرف طريقه ، فما كاد يطأ بقدميه بابه حتى ضغط زر المصباح ليرى ما أمامه ، ولكنه سرعان ما ارتد إلى الوراء مفزعاً مضطرباً إذ تعالت صيحات الاحتجاج والتوبيخ الموجهة إليه من كل جانب

— من هذا الغبار الذى يريد ضياعنا فى شربة ماء ؟ !

— من هذا المجرم الذى يريد قتلنا ؟ !

— إطفئ النور أيها الغفل

— الله ، الله ... أتريد قتلنا بمصباحك كما قتل مصباح آخر قوماً آخرين بالإسماعيلية ؟

* * *

ووسط ذلك السكون الرهيب والظلام الدامس انبعث صوت متحدث وزين تدل نبراته على فرط الرسوخ فى العلم

قال زاده الله علماً ومعرفة :

— الصمت مطلوب فى هذه اللحظة يا إخوان، لأن طيارات الأعداء بها أجهزة خاصة لالتقاط أصوات المتكلمين وهى من الدقة بحيث لا يخفى عليها حتى همسات الهامسين ... ضموا ألسنتكم فى أفواهكم ، وإن استطعتم فاكتموا أنفاسكم على قدر الاستطاعة ! بهذا حكم الله وبه قضى ، ولا راد لقضائه سوى رحمته . واعلموا أن كل من يجازف بالحديث أثناء تحليق الطائرات فى الجو كأنه يريد أن يدل الأعداء على مكاننا ، أو بمعنى آخر كأنه يريد القضاء على نفسه وعلينا جميعاً

ولست أدرى هل صدّق الناس قول ذلك الخبير العجيب أم لم يصدقوه ، فان واحداً منهم لم يعترض على ما قال ولم يحاول مناقشته ، ولكنى لا أشك لحظة فى أن جارتى العجوز قد آمنت بكل كلمة من كلماته ، وإلا فما بالها تكتم أنفاسها ذلك الكتم الشديد الذى جعلها فى آخر الأمر تعلن إفلاسها فى تلك المحاولة العسيرة قائلة : بفضل الله ما يشاء ... إننى أكاد أموت اختناقاً

ثم جازفت وعادت سيرتها الأولى فى استنشاق الهواء ونفثه بالكيفية المعادة

* * *

وعند مدخل المخبأ وقفت مع بعض اللاجئين قراراً من الجو الخانق فى داخله كان بيننا جندى من أهالى الصعيد يظهر من لهجته الجافة أنه لم يذق أى نصيب من التعليم أو التهذيب

ومما يدل على حاجته الشديدة إلى دروس فى اللوق أنه اختار هذه المناسبة ليحدثنا عن جماعة لجأوا إلى مخبأ فى بلد من البلاد المنكوبة بالغارات فأصيب ذلك المخبأ وهم فيه بقنبلة مباشرة نسفته نسفاً وجعلت من فيه أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقرى !

وفى أثناء حديثه ظهرت أنوار المصابيح الكاشفة منعكسة على السحاب فأراد أحدنا أن ينتهز فرصة ظهورها ليحول التفاتنا إلى غير ذلك الحديث المقلق للراحة حديث الجندى اللبق ! فقال وهو يشير بسبابته إلى حيث تلك الأنوار :

— أنظروا ! ها هى الأنوار الكاشفة قد بدأت عملها

ولكنه ما كاد يفعل حتى انقض الجندى على ذراعه الممدودة فى الفضاء وإذا به يجذبها فى شدة وعنف قائلاً فى غضب ليس بعده غضب :

— أأنت مجنون يا هذا ؟ أتريد أن ترى الطيارات ذراعك الممدودة وسبابتك الموجهة إليها فتعرف مكاننا ولا تتركنا إلا أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقرى كما حدث فى ...

واستأنف حديثه كما بدأه . . .

* * *

وردد الفضاء صوت انفجار أول قنبلة مضادة للطائرات ، ثم تلاه أصوات متلاحقة لقنابل أخرى تتفاوت فى الشدة والقوة فسرت فى المخبأ ومضة رهيبة تلاها صمت كصمت القبور لم يقطعه إلا صوت امرأة تخاطب زوجها قائلة :

— هذا صوت قنابل الطيارات . إنهم يضربون البلد ! لا بد من الهجرة غداً

فأجابها فى صوت ضعيف مستكين :

— ليست هذه قنابل الطيارات

— فما تكون إذن ؟ لا بد من الهجرة غداً . . . غداً من الفجر بإذن الله . هل جننت حتى أعيش فى هذا الجحيم ؟

— ليست هذه قنابل الطيارات . قلت لك إنها المدافع المضادة لها

— بل هى قنابل الطيارات

— ليست هى قنابل الطيارات

— بل هى قنابل الطيارات

— ليست ...

وشفع كلامه فى هذه المرة بحركة صاحت على أثرها المرأة صياحاً منكراً ، وإذا بها معركة زوجية من الصنف الحاد

وطغا صوت المرأة على صوت أضخم للدافع وأقواها صوتاً

* * *

وكان الأستاذ كامل قد احتسى كأساً أو كأسين غير حاسب للغارات حساباً ؛ فلما فاجأه غارة الليلة وهو فى نشوته الذيذة هبط إلى الخبأ وهو يلعن الحرب ومن كان السبب فى شبوبها

وهناك انتبذ ركناً قصياً واستسلم للتفكير

ولكنه لم يهنأ بجلسته طويلاً ، إذ صاح صبى من الصبية كان يجلس إلى جواره قائلاً :

— هنا رجل سكران يا ماما ... فى الخبأ رجل سكران طينة ... إننى أشم رائحة الخمر . وأيدته امرأة عجوز قائلة :

— إن رائحته كبرميل من الخمر الفندرة

وإذا بدردبيس أخرى تقول :

— إن وجوده بالخندق نجاسة !

فلم يسع كامل أفندى إلا أن ينفلت من مكانه فى سكون تاركا القوم قبل أن يكشفوا أمره ... ومن يدرى ماذا يفعلون به حينئذ ؟ !

وأقسم من تلك الليلة ألا يذوقها إلا نهاراً ...

* * *

فى الخبأ عجائب لا تجتمع فى مكان آخر ، وفيه مفارقات لا تخطر على بال

ها هنا رجل جبان رعديد ينتفض من الفزع ، بينما أخذت طفلة فى الخامسة تشجعه وتهون الأمر عليه

وهناك فتاة عابثة تضحك من كل شىء ومن لا شىء

فى الخبأ لمحات من الفكاهة الصافية الحلوة وصور عابسة من الألم المرير . وإذا كنت لم تر السعادة مرتسمة على وجه من الوجوه فتعال إلى الخبأ وانظر إلى وجوه الخارجين منه بعد انتهاء الغارة وكأنهم يبعثون !

أما إذا أردت أن ترى الهم فى أقتم صوره فانظر إلى ذلك الوالد وهو يجلس إلى جوار زوجته المريضة وقد حمل على يديه واحداً من أولادها بينما حملت هى آخر ، بينما جلس بينهما ثلاثة أو أربعة آخرون .

(السويس)

محمد محمود عواد

إلى هواة المناظر وإلى المصابين باضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتدريبات تملك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن القلق والآلام الجسدية وفى تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون التنويمية لمن أراد احتراف التنويم التنويمى والحصول على دبلوم فى هذا الفن اكتب إلى الأستاذ أنور توما ٢١٩ شارع الخليج الغربى بشبرة بمصر وارفق بطلبك ١٥ مليما طوابع للمصاريف فتصلك التعليمات مجاناً ..

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى فى مجلد واحد ٥٠ قرشا ، و٧٠ قرشا عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة فى مجلدين . وثمن هذا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشا فى الخارج عن كل مجلد .